الوضعيـــــة اللغويـــــة و اللهجية في الجزائر*

حساين عويشة

جامعة تلمسان

إنّ تاريخ الجزائر سيّرته عوامل ووجّهته ظواهر مختلفة، فكانت ولا تزال بموقعها الاستراتيجي تُعدُّ ممرًّا يربط بين العالمَيْن الشمالي والجنوبي، أو بوّابة تُفتَح على المنطقتين الشرقية والغربية من الكرة الأرضية.

كان لاتصال الجزائر واحتكاكها بالكثير من الشعوب الأثر البالغ في تأثُّر لُغَتها بلغات تلك الشعوب كالبونيقية والإغريقية واللاتينية والجرمانية والعربية والاسبانية والتركية والفرنسية.[1] كما كانت قد تمتّعت باتّصالات بشرية في أقدم عصورها كاتصالها بالجاليات اليهودية وسكّان مصر القدماء على الحدود الشرقية واللهجات غير اللاتينية لمجموعات من الناس سكنوا في الساحل الشمالي لحوض البحر المتوسّط الغربي كالكتالانية (Catalagne) والباسكية (Basque) واللغندوسية (Langdocienne) وغيرها، ومن الجنوب مع اللغات الإفريقية مثل الهوسة (Haoussa) والسانغية (Songhaï) والمندزغية (Mandingue).[2]

إنّ المشهد اللغوي في الجزائر، وكذلك في البلدان المجاورة لها يَتمثّل في تعايش عدّة لهجات يستعملُها المغاربة لمقاصد تواصلية ووظائف سوسيولسانية متنوّعة.

يُعدُّ هذا المشهد مزيجا لغويّا يُنذر وجوده في أغلب الأقطار الأخرى، وهو يتشكّل من اللغة العربية الفصحى وتَجلياتِها المتعدّدة من لّهجات، ومن اللغة الأمازيغية بفروعها المختلفة، ومن لغات أجنبية كالاسبانية والتركية والايطالية والفرنسية وغيرها. ولا يُمكن أن نفهم هذه الحقيقة اللغوية إلاّ إذا

عدنا إلى تاريخ الجزائر في مراحله القديمة لنستبين مّا وقع فيه من أحداث أثّرت في لغة الأجداد تأثيرًا عميقا أو خفيفا حسب الظروف، ولنطّلع عمّا هو غائب عن أذهاننا، فنكتشف أسرار وعوامل تَكَوُّن هذا الواقع اللهجي.

كانت الجزائر على الدوام « خاضعة للتأثير وفي بعض الأحيان لمصير الحضارات التي كانت أجنبية عنها»[3]، فقد عُثِر في عدّة نواحٍ منها على « بعض الكتابات الثنائية اللغة، لوبية-بونيقية أو لوبية-لاتينية»[4]، ومن هنا يتّضح لنا أنّ سكّان الجزائر كوّنوا- منذ القدم- مُجتمعًا ثنائيَّ اللغة إن لم نقل متعدّدَ اللغات، وما تعدّدُ اللغات (multilinguisme) إلاّ شكلٌ أكبر وأوسع لِتعدّد اللّهجات (multi dialectalisme). يقول روبانس (Robins) « هذه المجتمعات الثنائية اللغة أو المتعدّدة اللغات تُمثّل شكلا من المجتمعات المتعدّدة اللّهجات الموجودة في الكثير من مدن العالم الكبرى.»[5]

عجز العلماء بكلّ اختصاصاتهم عن الاطّلاع على الوضعية اللغوية في الجزائر أثناء فترة ما قبل التاريخ، غير أنّ كلّ ما أفادتنا به أمّهات المصادر والمراجع التاريخية وأكّدته لنا سجّلات القدماء من مُختلف النقوش، أنّ الجزائر كانت آهلة في حِقبٍ زمنية غابرة بأقوام يُدعَون باللوبيّين تكلّموا بلغتهم التي فطروا عليها، ثُمّ تأثّروا نسبيًّا بلغة الفينيقيين حين قدموا إلى المنطقة، فاخترعوا-محاكاةً للفينيقيين- أبجدية خاصّة بِهم تناسب

أصوات لغتهم. وقد أُطلِق على تلك الكتابة اسم الخطّ اللوبي الذي لازالت بعض رموزه المنقوشة لم تُفكّ بعد على الرغم من وجود بعض النقوش المزدوجة اللغة (لوبية-بونية) و(لوبية -لاتينية)[6].

وقد عدّ العلماء تلك النقوش وقدّروها بحوالي عشرين (20) نصًّا موزّعا على كامل تراب المغرب العربي؛ نذكر منها على سبيل المثال، نصّ دوقة (Dougga[7]) الأوّل والثاني، وكذا نصّ "رأس جينات" بالوسط الجزائري وغيرها[8]. ويظهر من هذه النقوش وغيرها أنّ الملوك النوميديّين المنحدرين من الأصل اللوبي لم يكتبوا بالحروف اللوبية و لم يتّخذوا اللغة اللوبية لغة رسميّة في مُعاملاتِهم الداخلية والخارجية، بل كانوا يستعملون اللغة البونيقية حديثًا وكتابةً، وهذا أمرٌ متّفق عليه بين أوساط العلماء والدارسين.[9]

ومن المنطقي أن السكّان المحلّيّين الذين أقاموا في القرى لم ينكروا لغتهم اللوبية و لم يُهملوها، بل كانت سائدة شفهيا وكتابة، وإلاّ فلِمَ توارثها أبناؤهم حتى الآن. وممّا يؤكد بقاءها، وجودُ بقايا رموز كثيرة الانتشار لاسيّما في الركن الشّمالي الشّرقي من القطر الجزائري وشمال غرب البلاد التونسية[10].

ومن المعروف أنّ الأمازيغ لم يُحبّذوا الاحتلال الروماني و لم يفرحوا به بل قاوموه بالنفس والنفيس ورغم ذلك، فقد استطاع الرومان أن يتركوا آثارا للغتهم.

ترك الرومان بقايا تاريخية تُعدُّ من أضخم الآثار التي شيّدوها في الجزائر، بل استطاعوا أن يفرضوا لغتَهم اللاتينية على طبقة معيّنة وقليلة من الأفراد، فبرزت نُخبة من المثقّفين الأمازيغ كتبوا بتلك اللغة أمثال أبوليوس (Apulée) 125-180 وكتابه الحمار الذهبي، والقدّيس أوغسطين (Augustin Saint) 354-430 ومن أشهر مؤلّفاته {مدينة الإله} و{الاعترافات} و{العناية الإلَهية}[11]، ويوبا الثاني[12] الذي لُقّب

بملك الأدباء وأديب الملوك، فقد ألّف كتابًا عنوانه {أفريكا نوفا } ضاع ولم يصلنا منه إلاّ بعض المقاطع استشهد بها كتّابٌ و مؤرّخون عاشوا بعده. فلا غرابة إذن أن نجد في لهجات سكّان الجزائر بعض الكلمات اللاتينية نذكر منها على سبيل المثال لفظة اسكويلة (Scola-scolae) التي تعني المدرسة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ فترتَي الاستعمار الوندالي والبيزنطي للمنطقة لم يتميّز ببقاء آثار لغوية. إذ لم يكن لمسيِّري الدولة البيزنطية الوقت الكافي ليهتمّوا بالجانب الثقافي واللغوي بشكل خاصّ، نظرا للفتن التي كانت تعاني منها هذه الدولة.

انطلاقًا من عام 646 م= 26 ه وصل العرب المسلمون إلى شمال إفريقيا لتبليغ الدين الإسلامي إلى أهاليها. وقد تَمّت عملية الفتح حوالي سنة 710 م= 92 ه[13]، فاعتنق الأمازيغ هذا الدين وشرعوا في تعلُّم وفهم سور قرآنية قصيرة لأداء فريضة الصلاة، وكذا تعلّموا النطق ومعرفة المعنى لبعض الكلمات من لغة الضاد والقليل من عباراتها ذات الأهَمية الدينية الضرورية كالله أكبر، والسلام عليكم، وسبحان الله وغيرها. فعمّ البلاد الإسلام وشمله، ولَم يبدأ التعريب الفعلي والحقيقي للأمازيغ إلاّ خلال القرن الحادي عشر الميلادي الموافق للقرن الخامس الهجري، إثر نُزوح قبائل بني هلال وبني سليم – وبني معقل فيما بعد – القادمين من صعيد مصر[14].

لم تدخل تلك القبائل البدوية البلاد من باب اللطافة، فقد أفسدوا بأقصى درجات العنف، وزاغوا عن الرشد والصواب، ورأى منهم الأمازيغ الأهوالَ والمتاعب،[15] وهذا ما يُركّز عليه معظم المؤرِّخين الأوربيين والمستشرقين وسلّطوا عليه الأضواء.

ولكن رغم هذا الفساد الذي أحدثه هؤلاء البدو، فقد كان لهم دورٌ إيجابي جدّا تجاه أبناء المنطقة، تَمثّل في نشر وتوسيع نطاق اللغة العربية في المجتمع الأمازيغي. يقول غسطاف لوبون (Gustave Lebon) المؤرّخ الفرنسي في كتابه "حضارة العرب" :

« ...لمّا حشر العرب جموعًا كثيرة في إفريقيا حوّلوا فريقًا كبيرًا من البربر إلى عرب وتدفّق العرب كالسيل على إفريقيا.وقام بذلك الغزوِ أعرابُ الحجاز الذين كانوا يقطنون بمصر العليا في زمن الخلفاء الفاطميين. وكان الأمرُ غارةَ أمّة لا غارةً عسكرية.ولَم يَملأ العربُ شَمال إفريقيا إلاّ بالتدريج. واختلطوا بالسكّان رويدًا رويدًا وزاد عددهم شيئًا فشيئًا وفرضوا، بفضل كثرتِهم على البربر، عاداتِهم ودينَهم ولغتَهم بعد بضعة أجيال»[16].

إنّ وصول الفتح الإسلامي إلى جزر صقيلية وإسبانيا أدّى إلى اتّساع رقعة الدولة الإسلامية، ممّا جعل جهازها الإداري يضعف، فسهّل ذلك لأعداء الإسلام القيام بعدّة غزوات، كان الهدف منها القضاء التامّ على الوجود العربي الإسلامي في صقيلية وإسبانيا. وبعد تمكُّنهم من ذلك، طردوا العرب من تلك المناطق، فلجأ هؤلاء(الأندلسيون) إلى الجزائر.

كان لهجرة الأندلسيين «أثرٌ كبير على المجتمع الجزائري من جميع النواحي ولعلّ القرن التاسع قد شهد أكبرَ موجة من موجات هذه الهجرة ففيه اشتدّت وطأة الإسبان على بقايا المسلمين في الأندلس»[17].

كانت فئات المهاجرين تتكوّن من أبناء الشعب البسطاء ومن أحفاد الملوك الحكّام والوجهاء وكان فيهم أرباب الصنائع وأصحاب القلم فأثّروا في سكّان المغرب العربي أيّما تأثيرٍ «وهكذا كانت المأساة الإنسانية في الأندلس خيرًا وبركةً على مجتمع المغرب العربي الذي كان دائمًا يلعب دورَ الوسيط في الانتاج الثقافي وليس دور

المنتج»[18]. وممّا لا شكّ فيه أنّ أولئك القادمين أضافوا إلى لهجة المغاربة مفرداتٍ وتراكيبَ جديدةً كما أنّهم تعلّموا بدورهم من الأهالي أساليب لهجية كانوا لا يستعملونها.

وبعد أن طرد الإسبان المسلمين من الأندلس أرادوا احتلال الجزائر، فسيطروا على بعض مناطقها الساحلية كوهران وبني صاف وغيرهما، مدة من الزمن، الأمر الذي أدّى إلى حدوث تأثير وتأثُّر بين اللغتين. فاستنجد الجزائريون بالأتراك الذين كانوا قد أسّسوا الدولة العثمانية في قارّة آسيا ثمّ في جزء من القارّة الأوربية، وذلك بعدما استولى محمّد الثاني على القسطنطينية عام 1453م[19]. فنصّبت الدولة العثمانية نفسَها مهمة الدفاع والحماية للدول الإسلامية. ومن هنا، دخلت اللغة التركية المجتمع الجزائري. واقتبس منها الأهالي بعض الكلمات وأدمجوها في كلامهم بعد ما أدخلوا عليها تغيُّرات تتماشى ولغتَهم. ثمّ أصاب الدولة العثمانية الضعف والهوان، الأمر الذي سهّل على الفرنسيين احتلال الجزائر

كان الفرنسيون يزعمون أنّهم جاؤوا لاسترجاع الأراضي التي كانت مِلكًا لأجدادهم الرومان ثمّ البيزنطيين[20]. وكان هذا الغزو سببًا لتعلُّم أبناء الجزائر اللغة الفرنسية فأخذوا منها مفردات كثيرة أدخلوها في لهجتهم العربية وفي اللغة الأمازيغية أيضا.

لازالت الفرنسية، بالرغم من مرور حوالي نصف قرن على استقلال الجزائر، تلعب دورًا هامًّا في عدّة مَجالات، كالمراسلة والتأليف والتواصل الشفهي. فالواقع اللساني المحلّي يَجعلنا نلمس بكلّ وضوحٍ أنّ عددًا كبيرًا من الكلمات الفرنسية طغت على اللهجة

الجزائرية، ممّا جعلها صعبة الفهم لدى العرب المشارقة، فمثلا إذا تَحدّث الجزائري مع المصري أو العراقي أوالأردُني يتساءل المخاطَبُ بأيّ لغة يتكلّم معه هذا الجزائري[21].

يُتخلَص من هذا كلّه أنّ الجزائر بلد تعايشت على أرضه عدّة لغات لأغراضٍ تواصليةٍ ووظائفَ سوسيولغوية مُختلفة[22]، فاللغة العربية الفصحى تُمثِل اللغة الرسمية للوطن، إضافة إلى اللّهجات المحلية المتنوِّعة التي هي مزيج من العربية والأمازيغية والفرنسية مع استعمال بعض الألفاظ الاسبانية والتركية.

الإحـــــالات

● **البحث : مراجعة و تدقيق : أ.د. شايف عكاشة – كلية الآداب و اللغات – جامعة تلمسان.**

[1]1- عبد الرحمن الجيلالي،ج2،تاريخ الجزائر العام ،مطبعة دار الثقافة، بيروت ،د.ط، 1982م ص34.

-[2]

SALEM CHAKER: le berbére,une langue vivante à la croisée des échanges méditerranées,paris,sorbonne,2003,p131.

[3] - Charles André Julien –«**L'histoire de l'Afrique du Nord**» –Tome 1– édition : Payot 1931page 49.

[4] - Kaddache Mahfoûd – " **L'Algérie dans l'antiquité**" – édition : S.N.E.D. 1972 – page 32.

[5] - Robins R.H – "**General linguistics : An introductay Surey** "– :Longman – London -3rd édition 1964 – page 302.

:ينظر[6]

G. Marcy – "**Les inscriptions lybiques bilingues de l'Afrique du Nord**" Imprimerie nationale-Paris : 1936.P20-25

[7] - قرية في شَمال تونس و كانت في الْماضي البعيد تُسمّى ب طوغا "Thugga".

[8]- محمد الصغير غانم.**المملكة النوميدية والحضارة البونية**،دار الهدى،عين ميلة الجزائر،د.ط، 2006 ،ص2.

[9]- نفسه، ص 135.

[10]-A.J.B.Chabot – " **Recueil des inscriptions libyques**" – Paris – 1940- pages 3 et 4- Inscriscription N°4.

[11]- عبد الرحمن الجيلالي، ج2 ، ص81.

[12]-كان متزوِّجًا بكليوبطرا سيليني بنت كليوبطرا الْملكة الْمصرية الْمشهورة، وقد دُفِن الاثنان فيما يُعرف بقبر الرومية بالقرب من مدينة شرشال. ينظر: المرجع نفسه، ص81.

[13]- ينظر:عبد الرحمن الجيلالي،ج2 ،ص 123.

[14]- السابق، ص260.

[15]- نفسه، ص 260.

[16] - غوسطاف لوبن، حضارة العرب،نقله إلى العربية عادل زعيتر،مطبعة عيسى البابلي الحلبي،ط4 1964م ص 257،256.

[17] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي لفترتي 1500 إلى 1830**،-دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1998، ص46.

[18] نفسه، ص47.

[19]- عبد الرحمن الجيلالي،ج3، ص9.

[20]- نفسه، ص97.

[21] - غوسطاف لوبون، ص440.

2 شامي عبد الكريم، **دراسة صوتية ودلالية للدخيل الإسباني في لهجة بني صاف**، مخطوط مذكرة ماجيستير في علم اللهجات، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان ،2000-2001، ص29